الفائدة الحادية والثلاثون:

قَالَ تَعَالَى: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}

الحمد لله، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ تَسْلِيمًا كَثِيْرًا، **أَمَّا بَعْدُ:**

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء:٣٥]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: {هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الإنسان:١].

ومما ابتلى الله عَزَّوَجَلَّ به العباد ما ينوبهم من الخير، ومن الشر، ومن المصائب، ومن النعيم، فكم من متنعم لم يشكر ربه على هذا النعيم؟!؛ بل كان نعيمهم من أسباب بعدهم عن الله عَزَّوَجَلَّ، وكم من مبتلى لم يستفد من بلواه بالرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فزاد شره على ما فيه من البلاء؟!، وبعد من الله مع ما فيه من البلاء.

* **بينما المؤمن حاله مختلف عن ذلك تمامًا**، كما في حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الإمام مسلم[1]: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**».

أنعم الله عليه بالولد، والزوجة، والمسكن، والمال، والجاه، والعلم، وغير ذلك من النعم، شكر الله عَزَّوَجَلَّ، وظهر ذلك عليه، وعلى جوارحه، وفي أقواله.

---

(١) برقم (٢٩٩٩).

وإذا أصابته ضراء صبر، أُبتلي بمرضٍ، بفقرٍ، بكثرة أعداء، لغير ذلك من البلاء، وإذا به يصبر، ويتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بهذا البلاء، ويدعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يرفعه عنه متأسيًا بما سبقه من الأنبياء، والمرسلين.

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء:٨٣-٨٤]، مع ما كان فيه من المرض، والتعب، والنصب؛ إلا أنه كان شاكرًا، ذاكرًا، داعيًا لله عَزَّوَجَلَّ.

ﷺ وقد ضرب الله عَزَّوَجَلَّ لنا مثلًا بنبيين كريمين، أحدهما: في الرخاء، والثاني: في الشدة والضراء، أما صاحب الرخاء فهو سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث، قَالَ الله تَعَالَى عنه: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ} [ص:٣٥-٤٠].

وكذلك حين ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال في آخر قصته: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص:٤١-٤٤].

وكلاهما كان نعم العبد؛ إذ أن الحال الذي كان عليه لم يغيره، ولم يغير سبيله إلى الله، فسليمان سخر الله له الجن، والشياطين، والريح، وآتاه وعلمه منطق الطير، ومع ذلك كان مسارعًا في العبادة، والطاعة، بل أنه لما شغل بالخيل عن صلاة المغرب ندم على ذلك، قَالَ تَعَالَى: {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ

مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [ص:٣٢].

وأيوب مع شدة المرض، والسقم حتى ذُكِرَ أنه مرض ثمانية عشر سنة حتى تركه القريب، والبعيد، ومع ذلك ما زال صابرًا شاكرًا، داعيًا متضرعًا، فليكن حالنا كحالهم إن أعطانا الله فهو فضله، وفضله يجب أن يشكر عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: {لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم:٧].

وإن منعنا الله وابتلانا ونسأله اللطف يجب علينا أن نصبر؛ لأنه ما ظلمنا ولا أخذ حقنا وإنما هي حكمته، ويُشكر في هذا الحال على عدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي هو فعال لما يريد، وكم من إنسان تكون له منزلة في الجنة لا يبلغها مع السراء؛ فيبتليه الله عَزَّوَجَلَّ بالضراء حتى يبلغها.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْزِلَةُ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ اللَّهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا**»(١)، فالأمر لله ما يدري الإنسان ما الذي يصلحه، وما الذي يكون من أسباب فساده.

وأما فتح الدنيا فلا عبرة به، قَالَ تَعَالَىٰ: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:٤٤-٤٥].

وفي حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أحمد(٢)، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام:٤٤].

(١) أخرجه ابن حبان (٢٩٠٨).
(٢) برقم (١٧٣١١).

* فالمؤمن لله في جميع أحواله، والكافر لغير الله في جميع أحواله، تتأسى بالمؤمنين، ولا تتأسى بالكافرين؛ لأن بين هذين الصنفين طوائف بعضهم يقرب من حال أهل الإيمان، وبعضهم يقرب من أهل النفاق والكفران.

فدائمًا غلب الجانب الذي يوصلك إلى الله وهو راضٍ عنك، فإذا رضي عنا ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كل شيء يهون ولا يُبالى به، وإذا غضب علينا ربنا والله لا نستأنس برضى أحد.

وفي الأثر: (من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه، واسخط عليه الناس، ومن أرضى الله بسخط الناس رضي الله عليه، وأرضى عنه الناس)، فالأمر لله من قبل، ومن بعد.

والحمد لله.